من إرميا نبيّ الأمم
إلى بولس رسول الأمم

الأخت ياره متّى
دكتوراه في اللاهوت والكتاب المقدّس

مقدّمة

في سياق تفصيله لمسألة دور اليهود وغير اليهود في تاريخ الخلاص واقتبال النعمة الإلهيّة، يعرّف القدّيس بولس عن نفسه بأنّه "رسول الأمم" (رو ١١: ١٣: ἐθνῶν ἀπόστολος). ولا شكّ أنّ قارئ الكتاب المقدّس المتمرّس يرى في هذا اللقب نوعًا من القُربى مع تسمية إرميا "نبيّ الأمم" في العهد القديم (إر ١: ٥).

في الواقع، يتجذّر بولس في إرثه اليهوديّ ومعرفته العميقة للكتب المقدّسة؛ منها يستقي المَعين والسَند لإيمانه الجديد بالمسيح القائم من الموت. لذلك لا يبدو غريبًا أن يتمثّل الرسول بشخصيّات العهد القديم، أو يستوحي منها لحياته ورسالته بعض الخطوط العريضة التي عاشها أحبّاء الله وخدّامه، من أمثال إبراهيم وموسى، أو أشعيا وحزقيال وهوشع... ولكنّ قرابةً روحيّة خاصّة تجمع بولس إلى إرميا، نقرأها من خلال تفاصيل عديدة ومتنوّعة، بدءًا بدعوة الله لكلٍّ منهما، مرورًا بالمهمّة الموكولة إليهما تجاه الأمم الوثنيّة، وصولاً إلى المعاناة الأليمة التي تعرّضَا لها بسبب الرسالة المطلوبة في حَمْل كلمة الله وتحقيقها. من هنا، بالإضافة إلى الاستشهادات النبويّة المباشرة، تتردّد في كتابات بولس تلميحات وإشارات مبطّنة، ترجّع أصداء كلمات نبيّ الأمم، وتعكس بعض وجوه رسالته في حياة الرسول ووعيه لذاته ومفهومه لحمل البشارة الجديدة.

كيف يرى إذًا بولس نفسه على ضوء نبوءة إرميا؟ هل تأثّر هذا الرسول المتبحّر في الكتب المقدّسة وفي تقاليده اليهوديّة، كما يليق بأيّ فرّيسيّ غيور، بكلام إرميا بن حلقيّا، من قرية عناتوت؟ فهو مثله، من سبط بنيامين (إر ١: ١ وفل ٣: ٥)، لم يتخِّذ امرأةً (إر ١٦: ٢ و١ كو ٧)، بل تفرّغ لحمل كلمة الربّ بتمسّكٍ شديد وقناعةٍ عميقة، رغم معارضة الأنبياء الكذبة له (إر ٢٣: ٩-٤٠ و٢ كو ١١: ١٣)، وافتقاره إلى حسن البلاغة (إر ١: ٦ و٢ كو ١١: ٦).

لنتوقّف إذًا عند هذا الرباط المتين بين النبيّ إرميا والرسول بولس، علّنا نستشفّ أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين عبدَي الله، من خلال مقارنة جوانبَ خمسة ظاهرة في الكتابات المنسوبة إليهما. والجدير بالملاحظة أنّ هذه المقارنة تحمل قيمةً دلاليّةً أكثر منها شموليّة، ولو فتحت السُّبل لدراسةٍ أكثر تعمّقًا.

١ – دعوة بولس

في مهبّ العاصفة التي واجه فيها بولس الدّاعين إلى الختان في كنائس غلاطية، وجد نفسَه مضطرًا للدفاع

مقدّمة

في سياق تفصيله لمسألة دور اليهود وغير اليهود في تاريخ الخلاص واقتبال النعمة الإلهيّة، يعرّف القدّيس بولس عن نفسه بأنّه "رسول الأمم" (رو ١١: ١٣: eqnwn apostoloj). ولا شكّ أنّ قارئ الكتاب المقدّس المتمرّس يرى في هذا اللقب نوعًا من القُربى مع تسمية إرميا "نبيّ الأمم" في العهد القديم (إر ١: ٥).

في الواقع، يتجذّر بولس في إرثه اليهوديّ ومعرفته العميقة للكتب المقدّسة؛ منها يستقي المَعين والسَند لإيمانه الجديد بالمسيح القائم من الموت. لذلك لا يبدو غريبًا أن يتمثّل الرسول بشخصيّات العهد القديم، أو يستوحي منها لحياته ورسالته بعض الخطوط العريضة التي عاشها أحبّاء الله وخدّامه، من أمثال إبراهيم وموسى، أو أشعيا وحزقيال وهوشع... ولكنّ قرابةً روحيّة خاصّة تجمع بولس إلى إرميا، نقرأها من خلال تفاصيل عديدة ومتنوّعة، بدءًا بدعوة الله لكلٍّ منهما، مرورًا بالمهمّة الموكولة إليهما تجاه الأمم الوثنيّة، وصولاً إلى المعاناة الأليمة التي تعرّضَا لها بسبب الرسالة المطلوبة في حَمْل كلمة الله وتحقيقها. من هنا، بالإضافة إلى الاستشهادات النبويّة المباشرة، تتردّد في كتابات بولس تلميحات وإشارات مبطّنة، ترجّع أصداء كلمات نبيّ الأمم، وتعكس بعض وجوه رسالته في حياة الرسول ووعيه لذاته ومفهومه لحمل البشارة الجديدة.

كيف يرى إذًا بولس نفسه على ضوء نبوءة إرميا؟ هل تأثّر هذا الرسول المتبحّر في الكتب المقدّسة وفي تقاليده اليهوديّة، كما يليق بأيّ فرّيسيّ غيور، بكلام إرميا بن حلقيّا، من قرية عناتوت؟ فهو مثله، من سبط بنيامين (إر ١: ١ وفل ٣: ٥)، لم يتخِّذ امرأةً (إر ١٦: ٢ و١ كو ٧)، بل تفرّغ لحمل كلمة الربّ بتمسّكٍ شديد وقناعةٍ عميقة، رغم معارضة الأنبياء الكذبة له (إر ٢٣: ٩–٤٠ و٢ كو ١١: ١٣)، وافتقاره إلى حسن البلاغة (إر ١: ٦ و٢ كو ١١: ٦).

لنتوقّف إذًا عند هذا الرباط المتين بين النبيّ إرميا والرسول بولس، علّنا نستشفّ أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين عبدَي الله، من خلال مقارنة جوانبَ خمسة ظاهرة في الكتابات المنسوبة إليهما. والجدير بالملاحظة أنّ هذه المقارنة تحمل قيمةً دلاليّةً أكثر منها شموليّة، ولو فتحت السُّبل لدراسةٍ أكثر تعمّقًا.

١ – دعوة بولس

في مهبّ العاصفة التي واجه فيها بولس الدّاعين إلى الختان في كنائس غلاطية، وجد نفسَه مضطرًا للدفاع عن شرعيّة سلطته الرسوليّة في الكنيسة التي أسّسها وبشّرها بإنجيل المسيح، فأعلنَ دون محاباة أنّه تلقّى دعوته الخاصّة من الله لا من البشر:

"فأُعلِمُكم، أيّها الإخوة، بأنّ البشارة التي بشّرتكم بها ليست بحسب البشر، لأنّي ما تلقّيتها ولا أخذتها عن إنسان، بل بوحي من يسوع المسيح؛ فقد سمعتُم بسيرتي الماضية في مِلّة اليهود، إذ كنتُ أضطهد كنيسة الله غاية الاضطهاد وأحاول تدميرها، وأتجاوز أكثر أترابي من بني قومي في مِلّة اليهود وأفوقهم في الغيرة الشّديدة على تقاليدِ آبائي؛ ولكن لمّا حسُنَ لدى الله الذي اختارني (وأفرَزني) مذ كنتُ في بطن أمّي، ودعاني بنعمتِه، أن يُظهر فيّ ابنه، لأبشّر به بين الأمم، لم أستشِر اللّحم والدّم..." (غل ١: ١١–١٦).

عندما يسلّط بولس الضوء على نداء الربّ الخاصّ له وعلى صِفته الرسوليّة، لا يبغي من ذلك مجرّد المشاركة مع مراسليه، ولا تقديم شهادة حياة عن ارتدادِه، فهذه

(١) J. BECKER, *Paul, l'apôtre des nations*, Paris/Montréal, Cerf/Mediaspaul, 1995, p. 10.

(٢) يرى البعض أيضًا في هذا النصّ تلميحًا إلى اختيار موسى في خر ٢ لإنقاذ شعبه. ولكن لا نجد صلةً أدبيّة مباشرة بين النصّين.

الشهادة الشخصيّة ليست إلاّ سبيلاً لتأكيد صحّة الإنجيل الذي يبشّر به وشرعيّة الرسالة التي أوكلت إليه. وكما يقول أحد الشرّاح: "إنّ اختبار الاهتداء لدى بولس ليس هو المفتاح للدّخول في فكره، بل ما يشغل بولس فعليًّا هو دعوة الله للرسالة ولحمل البشارة، خدمةً للعالم" [١]. إنّها أمانة بولس لدعوته وللمصير الذي أراده له الربّ؛ فالآيات المذكورة أعلاه تعبّر عن اختياره رسولاً، بوحي من يسوع المسيح، دون تدخّل بشريّ. إنّما هذا الخيار هو من الله "الذّي أفرزه من بطن أمّه"، ودعاهُ بنعمَته قبل أن يولد، كي يُظهر فيه ابنهُ ويبشّر به بين الوثنيّين!

إنّ التعبير بهذا الشكل يردّنا لا محالة إلى نبوءتَي أشعيا وإرميا في العهد القديم [٢]، فنقرأ أوّلاً في أش ٤٩: ١، ٥–٦ ما يلي:

"... إنّ الربّ دعاني من البطن، وذكرَ اسمي من أحشاء أمّي (...). والآن قال الربّ الذّي جبلني من البطن عبدًا له، لأرُدّ يعقوب إليه، وأجمع شعبه إسرائيل، وأكون كريمًا في عيني الربّ، ويكون إلهي عزّتي: قليلٌ أن تكون لي عبدًا، لتقيم أسباط يعقوب وتردّ الباقين من بني إسرائيل. إنّي قد جعلتك نورًا للأمم، ليبلغ خلاصي إلى أقاصي الأرض".

لا غرابة في أنّ يتبنّى القدّيس بولس ما ورد هنا من نبوءة أشعيا الثّاني عندما يصف نفسه برسول الوثنيّين (رو ١١: ١٣)؛ فالله اختاره من الحشا ليكون نورًا للأمم، ويحقّق بذلك مصير عبد يهوه المتألّم. بهذا النداء الإلهيّ يعتبر الرسول أنّه يتمّم دعوة شعبه إسرائيل الحقيقيّة بحمل البشارة إلى أقاصي الأرض. هكذا يفهم دعوته وهكذا يفهم رسالته، لا بل هكذا يرسم مصيره ضمن الخطّ النبويّ الذي يؤمن به ويرجو اكتمالهُ في يوم المسيح يسوع.

ولكن، بالإضافة إلى النشيد الثّاني لعبد يهوه في أش ٤٩، تبدو دعوة إرميا مرجعًا أساسيًّا يساعد بولس على تلمّس ملامح دعوته الخاصّة:

"قبل أن أصوّرك في البطن عرَفتك، وقبل أن تخرج من الرَّحم قدّستك، وجعلتك نبيًّا للأمم" (إر ١: ٥).

من الواضح أنّ المحورَين اللّذين يركّز عليهما بولس في هذه المقاربة يتعلّقان أوّلاً باختيار الربّ الحرّ المنزّه عن كلّ إرادةٍ بشريّة، من جهة، وثانيًا بالاختيار من أجل رسالة معيّنة، ألا وهي خلاص الأمم ونشر أنوار الإنجيل بين الوثنيّين، من جهة أخرى، وكأنّ بولس يقدّم نفسهُ للغلاطيّين، لا فقط من خلال عمله الرسوليّ كمؤسّس للجماعة المؤمنة، ولكن أيضًا كواحد من الأنبياء المدعوّين من الله لا من البشر، ممّا يميّزه عن سواه من المبشّرين الكَذَبَة الذين عاثوا فسادًا في كنيسة غلاطية، وأبعدوها عن إنجيل المسيح الحقّ. لذلك نستطيع القول مع أحد مفسّريّ الكتاب المقدّس: "يرى بولس خدمته الرسوليّة في رباطٍ وثيق مع مهمّة أنبياء العهد القديم، لا بل، بمعنى ما، كما لو كانت تشكّل ذروة هذه المهمّة النبويّة" [٣].

في الواقع، لدى قراءة الآيات الأولى من سفر إرميا (١: ١–١٠)، يتبيّن لنا أنّ مقدّمة الكتاب تضع مهمّة النبيّ إرميا في إطارها الجغرافيّ والتاريخيّ، ولكنّها تلفت النظر خاصّة إلى مفهومها اللاهوتيّ، أي إلى كونها كلمة الله الناطقة والفاعلة من خلال كلمات النبيّ؛ فهذا الشّابّ الخجول الخائف، العديم المهارة في الكلام، يحاول التهرّب من نداء الربّ: "آه، أيّها السيّد الربّ،

(٣) M. SILVA, "Galatians", in G.K. BEALE & D.A. CARSON (eds.), *Commentary on the New Testament Use of the Old Testament*, Nottingham, Apollos, 2007, p. 786.

هاءَنذا لا أعرف أن أتكلّم لأنّي ولد" (إر ١: ٦). إنّما هو الله الذي عرفه منذ تكوينه في الحشا، وقدّسه قبل أن يولد، وهو الذي يرسله ويكون معه. لم يُرْسِلْ إرميا نفسَه إذًا ولا جاء من لدن ذاته، بل أطاع كلمة الربّ رغم ضعفه، كما فعل موسى قبله: "فقال موسى للربّ: العفو يا ربّ، إنّي لستُ رَجُلَ كلام في الأمس ولا في أوّل أمس، ولا مذ خاطبتَ عبدَك، لأنّي بطيء النطق وثقيل اللّسان" (خر ٤: ١٠). إنّ النبيّ الحقّ لا يحمل كلمة من تلقاء ذاته، بل ينقل كلام الله، ويخاطب الشّعب بما أمره به الربّ، كما يحدّد ذلك سفر تثنية الاشتراع: "سأقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيخاطبهم بكلّ ما آمره له" (تث ١٨: ١٨).

لم تكن مهارة موسى ولا كفاءة إرميا على موعد مع الدعوة النبويّة، سواء كانت موجَّهة إلى خلاص الشّعب أم إلى الأمم الوثنيّة. هو الله مَن يدعو ويؤهّل مَن اختاره ليقوم برسالته على أكمل وجه، وهذا ما أعلنه بولس في غل ١: ١١– ١٦، مؤكّدًا أن لا فضل له في حمل البشارة، هو الذي كان مضطهِدًا لكنيسة الله. ولكن، بالمقابل، يحمل الآن إلى أهل غلاطية كلمة الله الحقيقيّة وإنجيل المسيح الذي لا زغل فيه؛ فكما عُرف إرميا قديمًا كنبيّ حقيقيّ، صادق، أمين للكلمة التي أودعها إليه الربّ، كذلك يعيد بولس قراءة دعوته الرسوليّة، على ضوء دعوة نبيّ الأمم، كرسولٍ حقيقيّ، صادق، من قبل الله، أمين على نشر إنجيل المسيح، إبن الله القائم من الموت؛ فهل هناك علاماتٌ أخرى تشير إلى صدق هذه الدعوة النبويّة؟

٢– نبيّ الله والأنبياء الكَذَبَة

لدى قراءة خاتمة سفر إرميا، كما وصلتنا في الفصل ٥٢، يدرك المؤمن أنّ خراب أورشليم ليس إلاّ تحقيقًا لإنذارات نبيّ الأمم، وبالتالي علامة على صدق نبوءاته؛ فالأحداث الأليمة والمصير الأسود، التي يعرضها هذا الملحق التاريخيّ، تعبّر خير تعبير عن مصداقيّة الكلمات التي تفوّه بها إرميا ولو بعد حين. لقد نفّذت كلمة الربّ إذًا ما سبق وأعلنت عنه على لسان النبيّ؛ وبالرغم من إساءة الأنبياء الكَذَبَة وسخرية أبناء شعبه، لم يلبث أن عرف الجميع أنّه هو النبيّ الحقيقيّ الناطق باسم الله، "فإنْ تكلّم النبيّ باسم الله ولم يتمّ كلامه ولم يحدث، فذلك الكلام لم يتكلّم به الربّ، بل تكلّم به النبيّ للاعتداد بنفسه، فلا تخف منه" (تث ١٨: ٢٢).

على كلّ حال، ليس هذا الأمر جديدًا في تاريخ إسرائيل، فالكتاب مليء بالتحذيرات من الأنبياء الدجّالين، الذين يُضلّون الشّعب ويُقصونه عن دروب الله. نقرأ مثلاً في إر ٢٣: ٩–٤٠ سلسلةً من النعوت والتنبيهات تكشف لنا فساد الأنبياء الكذّابين؛ فهم ممتلئون فسقًا في السلوك، وشرًّا في المساعي، يخدعون الشّعب بكلماتٍ معسولة، ويتكلّمون برؤيا قلوبهم لا بما يخرج من فم الربّ. يبشّرون بالسلام حيث لا سلام، وينأون عن دعوة أورشليم إلى التوبة، والأشرار إلى الرجوع عن طريقهم. يتنبّأون بأحلام كاذبة، فيقصُّونها على الشّعب بالخداع والأضاليل، لأنّ الله لم يرسلهم ولم يأمرهم ولم يضع في أفواههم كلمة الحقّ. ولكن "أيُّ صلةٍ بين التبن والحِنطة، يقول الربّ؟ أليست كلمتي كالنّار، يقول الربّ، وكالمطرقة التي تحطّم الصخر؟ لذلك هاءَنذا على الأنبياء الّذين يسرقون كلامي، كلّ واحد من صاحبه" (إر ٢٣: ٢٨–٣٠). إنّهم يبحثون عن مصالحهم الخاصّة، وبذلك يقودون الشّعب إلى التشبّه بهم في سلوكهم المنافي لشريعة الربّ. ولكنّ الله الذي لا يريد موت الخاطئ، بل أن يعود عن خطيئته ويحيا، يوجّه من جديد كلمته إلى نبيّه الحقيقيّ، علّ القلوب القاسية تلين وتتوب، فيقول لإرميا: "تكلّم على جميع مدن يهوذا القادمة للسّجود في بيت الربّ، بجميع الكلام الذي أمرتك أن تكلّمهم به، ولا تُسقط كلمة، لعلّهم يسمعون ويرجعون كلٌّ منهم

عن طريقه الشّرير، فأندم على الشّر الذي أنا نَويت أن أصنعه بهم بسبب شرّ أعمالهم" (إر ٢٦: ٢-٣).

إنّ هذه الاتّجاهات النبويّة الكاذَبَة قد شكّلت بالنّسبة إلى إرميا إحدى أشدّ المشاكل عبئًا، إذ هزّت كيانه، وجعلته يشكّ في نفسه وفي رسالته (رج إر ٢٨ و٢٩، إلخ)؛ فقد عرف الاضطهاد والاستهزاء والعزلة بين إخوته، لأنّه انفرد في المناداة بحقيقةٍ لم يقبلها الآخرون. وجاءت أخيرًا الكارثة التي أنبأ بها، لتضع التوقيع النهائيّ على صحّة نبوءاته، وأصالة خدمته النبويّة، وأمانته لكلمة الربّ.

وكما عانى إرميا من الأنبياء الكَذَبَة كذلك كانت معاناة بولس من الإخوة الكذّابين، الذين يدّعون أنّهم رسل المسيح، ويتلبّسون بثوب النّعاج وهم ذئابٌ كاسرة، فيقول الرّسول في ٢ كو ١١: ١٣-١٥: "لأنّ هؤلاء القوم رسل كذّابون، وعملة مخادعون، متلبّسون بزيّ رسل المسيح؛ ولا عجب، فالشيطان نفسه يتلبّس بزيّ ملاك النور، فليس بغريب أن يتلبّس خدمه بزيّ خدم البرّ. ولكنّ عاقبتهم تكون على قدر أعمالهم". إنّ خدمة بولس الرسوليّة هي إذًا في خطّ هذه الدعوة النبويّة التي تجري عكس تيّارات العالم، لذا هي تواجه جمًّا من الصعوبات والمعارضات؛ فالقدّيس بولس يصطدم أيضًا بعملة السوء الذين يبشّرون بإنجيل مغاير لإنجيل المسيح، فيدعون إلى الختان لا إلى التوبة، ويأسرون المؤمنين في شِباك الحكمة البشريّة والمجد الباطل، وذلك يزرع الحزن في قلب بولس، كما يعبّر بفيض دموعه: "وقد كلّمتكم عليهم مرارًا، وأكلّمكم عليهم الآن باكيًا: يسيرون سيرة أعداء صليب المسيح، عاقبتهم الهلاك، إلههم بطنهم ومجدهم عورتهم، وهمّهم أمور الأرض" (فل ٣: ١٨-١٩).

بالإضافة إلى البُعد الكريستولوجيّ حيث يؤكّد بولس أنّ المسيح هو طريق الخلاص الوحيد بالغِنى عن شريعة الختان، يدافع الرسول في الوقت عينه عن نمط حياة رسوليّة، لا تبحث عن أجرٍ لها بل تشهد لمجّانيّة البشرى، فيقول في ١ كو ٩: ١٦-١٨: "فإذا بشّرتُ، فليس في ذلك لي مفخرة، لأنّها فريضةٌ لا بدّ منها، والويل لي إن لم أبشّر! فلو كنتُ أفعل ذلك طوعًا، لكان لي حقّ في الأجرة، ولكن إذا كنت أفعله ملزمًا، فذلك بحكم وكالة عُهدت إليّ. فما هي أجرتي؟ أجرتي، إذا بشّرت، أن أعرض البشارة مجّانًا، من دون أن أستفيد ممّا يحقّ لي من البشارة". لا يستطيع بولس تجنّب البشارة، كما عجز قبله إرميا عن الهروب من الرسالة الموكولة إليه: "فقلتُ: لا أذكره ولا أعود أتكلّم باسمه، لكنّه كان في قلبي كنارٍ محرقة قد حُبست في عظامي، فأجهدني احتمالها ولم أقوَ على ذلك" (إر ٢٠: ٩).

إنّ هذه الطواعية للربّ، والغيرة على حمل كلمته، والمجّانيّة في نقل البشارة، هي أيضًا من علامات النبيّ الحقيقيّ والرسول الحقيقيّ: "إنّ العلامات المميِّزة للرسول قد تحقّقت بينكم بصبرٍ تامّ وآيات وأعاجيب ومعجزات؛ ففي أيّ شيء كنتم دون سائر الكنائس إلاّ لأنّي أنا بنفسي لم أكلّفكم شيئًا؟ فاصفحوا لي عن هذا الظلم!" (٢ كو ١٢: ١٢-١٣). ولكنّها مهمّة لا تخلو من معاناة، فعلى مثال إرميا يتألّم بولس أيضًا ويذكر أخطار الإخوة الكذّابين في تعدادٍ ما يذكر من لائحة المتاعب والأسهار والآلام والأخطار (٢ كو ١١: ٢٣-٢٩). ولعلّ في ذلك بالدرجة الأولى تشبّهًا بالمسيح المصلوب، بل تماهيًا معه، هو الذي حمل ملامح إرميا، وحقّق في موته وقيامته كلّ رموز الأنبياء وأشواق العهد القديم.

٣- إختبار الألم والافتخار بالربّ

(٤) رج أيضًا مت ٢٣: ٣٧: "أورشليم أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسَلين إليها".

يعترف إرميا أنّ كلمة الربّ كانت له سرورًا وفرحًا في أعماق قلبه (إر ١٥: ١٦)، ولكنّه يختبر أيضًا أنّ تأثيرها عليه كان في أغلب الأحيان سلبيًّا، إذ رُفض من بني قومه، وأُلقي في السّجن، وقاسى شراسة المعاملة من شعبه وأهل بيته، إلى حدّ أنّه سِيقَ مُكرهًا إلى مصر ليُنهي حياته في أرضٍ غريبة لم تحفظ ذكرى مكان قبره! من هنا تعدّدت في السِفر الحوارات التي يُجادل فيها النبيّ الله بلهجةٍ عنيفة، يناجيه ويشكو همّه ومرارته، ويعبّر عن مشقّة اتّباعه وعمق معاناته، وذلك بأسلوبٍ وجدانيّ رائع غنيّ بالصور والاستعارات. إنّه رجلٌ يتحاشى جماعة المازحين والضاحكين ليجلس تحت يدِ الربّ منفردًا في عزلته (إر ١٥: ١٧). إنّه يلوم الله في شدّة ألمه وينادِيه من أعماق يأسه: "لماذا صار ألمي دائمًا، وضربتي معضلة تأبى الشّفاء؟ إنّك صرتَ لي كينبوعٍ كاذب، وكمياه لا يُعتمد عليها" (إر ١٥: ١٨). ويتابعُ في مكانٍ آخر: "قد انكسر قلبي في داخلي، ورجفت كلّ عظامي، وصرتُ كإنسان سكران، وكرجلٍ غلبته الخمر، بسبب الربّ وبسبب كلمات قدسه" (إر ٢٣: ٩). يرفع النبيّ شكواه إلى الله، عالمًا أنّه لن يلغي يوم ولادته، كما ولن يتهرّب من النّداء الإلهيّ: "ويلٌ لي، يا أمّي، لأنّك ولدتني رجل خصام ونزاع للأرض كلّها" (إر ١٥: ١٠؛ رج ٢٠: ١٤-١٨)؛ "ها إنّهم يقولون لي: أين كلمة الربّ؟ فلتأتِ! أمّا أنا فلم أتهرّب عن كوني راعيًا وراءك، ولم أتمنَّ اليوم المشؤوم، وأنت قد علمت ما خرج من شفتيّ، فإنّه كان أمام وجهك" (إر ١٧: ١٥-١٦).

هذه المعاناة هي دليل آخر على كونه نبيًّا حقيقيّا، قد يتعرّض حتّى للرَجم من قِبل أبناء شعبه، كما ورد في تقليد يهوديٍّ قديم على هامش الكتاب: "كان إرميا من عناتوت، ومات في تفنة بمصر، بعد أن تلقّى ضربات الحجارة من أبناء شعبه" (**حياة الأنبياء** ٢: ١، من القرن الأوّل ميلاديّ تقريبًا)؛ فهل كان بولس مطّلعًا على هذا القَصَص الشعبيّ عندما ذكر في ٢ كو ١١: ٢٥ أنّه رُجم مرّة واحدة؟ [٤] فرسول الأمم، مثل إرميا، ملتزم جدّيًّا بمعركة الحقيقة ضدّ الضلال، ممّا يعرّضه أيضًا لتحمّل الآلآم؛ فالمحن والصعوبات جزء لا يتجزّأ من المهمّة الرسوليّة، نجد بعض نماذجها في ما كتبه بولس عن اختباراته القاسية: "يُضيَّقُ علينا من كلّ جهة ولا نُحطَّم، نقع في المآزق ولا نعجز عن الخروج منها، نُطارد ولا نُدرك، نُصرع ولا نهلك، نحمل في أجسادنا كلّ حين موت المسيح، لتظهر في أجسادنا حياة المسيح أيضًا" (٢ كو ٤: ٨-١٠)؛ ويتابع قائلاً: "إنّنا خدم الله بثباتنا العظيم في الشدائد والمضايق والمشقّات والسجن والفتن والتعب والسهر والصوم (...)؛ نُحسبُ مُضِلّين ونحن صادقون، مجهولين ونحن معروفون، مائتين وها إنّنا أحياء، معاقَبين ولا نُقتل، محزونين ونحن دومًا فرحون، فقراء ونُغني كثيرًا من النّاس، لا شيء عندنا ونحن نملكُ كلّ شيء" (٢ كو ٦: ٤-١٠).

إنّما الله الذي دعا إرميا ودعا بولس، يُشدّد عزيمة مختاريه ويجيب سُؤلهم، فهو "ربّ القوّات، الحاكم بالبرّ والفاحص الكلى والقلوب"، كما يعرفه إرميا (١١: ٢٠)، وكما يُردّد ذلك بولس: "كلامنا كلام من اختبرهم الله لكي يأتمنهم على البشارة، لا لنرضي الناس، بل لنرضي الله الذي يختبر قلوبنا" (١ تس ٢: ٤). لذا لا يفتخر كلٌّ منهما إلاّ بالربّ بعيدًا عن المجد الباطل. ولا شكّ أنّ كلمات إرميا في ٩: ٢٢-٢٣ حاضرة في ذهن بولس عندما يكتب إلى كنيسة كورنتوس، إذ نجد لدى نبيّ الأمم ما يقوله الربّ له في هذا الموضوع: "لا يفتخر الحكيم بحِكمته، ولا يفتخر الجبّار بجبروته، ولا

(٥) Cf. C. TASSIN, *L'Apôtre Paul. Un autoportrait*, Paris, Desclée de Brouwer, 2009 ; A. JAUBERT, *La notion d'alliance dans le judaïsme aux abords de l'ère chrétienne*, Paris, Seuil, 1963.

يفتخر الغنيّ بغناه، بل بهذا ليفتخر المُفتخر، بأنّه يفهم ويعرفني...". به يستشهد رسول الأمم بشكلٍ مباشر معلنًا: "ليتمّ ما ورد في الكتاب: من افتخر فليفتخر بالربّ" (١ كو ١: ٣١؛ ٢ كو ١٠: ١٧)، وهذا ما سوف يحقّقه بولس شخصيًّا في حياته الرسوليّة وفي اختباره الروحيّ عندما يكتب إلى أهل كورنتوس: "إنْ كان لا بدّ من الافتخار، فسأفتخر بحالات ضعفي..." (٢ كو ١١: ٣٠ي). إنطلاقًا من هذا الترفّع عن المجد الباطل، والتجرّد عن تملّق الناس، يمكن للقدّيس بولس أن يفهم بالعمق نعمة الصليب على مثال المسيح معلّمه، فيرسم مهمّته الرسوليّة في إطار خدمة العهد الجديد.

٤ – خدمة العهد الجديد

بعد كلّ الضربات التي أنبأ أورشليم بحدوثها، يعود إرميا ليوجّه إلى شعبه رسالة تعزية ورجاء، يجدّد فيها الله عهده لكلّ من يتوب ويرجع إليه، فيُعلن على لسان نبيّه أنّه يقطع عهدًا جديدًا مع بني إسرائيل ويؤكّد: "إنّي أجعل شريعتي في ضمائرهم، وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهًا، ويكونون لي شعبًا. ولا يعلّم بعد كلّ واحدٍ قريبَه وكلّ أخٍ أخاه قائلاً: "إعرف الربّ"، لأنّ جميعهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم..." (إر ٣١: ٣٣–٣٤).

هذا **العهد الجديد** يَذكره بولس مرّتين فقط في مُجمل كتاباته، أوّلاً حين يُخبر بما صنعه الربّ في عشائه الفصحيّ الأخير (١ كو ١١: ٢٥)، وثانيًا حين يقدّم نفسه على أنّه من خَدَمَة العهد الجديد في ٢ كو ٣: ٦. ولعلّ هذا الاستشهاد الخجول يعود إلى مفهوم **العهد الجديد** بحسب جماعة قمران التي تعتبر نفسها أمينةً للعهد من خلال الممارسة الدقيقة لتطلّبات الشّريعة، ممّا يحدو بولس إلى تحاشي التعبير منعًا لسوء الفهم [٥].

في إطار الدفاع عن نفسه وعن خدمته الرسوليّة، يذكر بولس هذا **العهد الجديد**، مشدِّدًا على أنّه لا يحتاج إلى رسائل توصية من الكورنثيّين أو إليهم (٢ كو ٣: ١–٦)؛ فالجماعة الكنسيّة هي هذه الرسالة بالذّات، كُتبت في قلوب الرُسل، لا بالحبر، بل بروح الله الحيّ، لا في ألواحٍ من حجر، بل في ألواح هي قلوب من لحم. لا غَروَ أنّ في هذا المقطع الصّغير أصداء واضحة من العهد القديم، وبشكل خاصّ من سفر الخروج حيث وهب الله لموسى لوحَي الوصايا (رج خر ٣١ و٣٢)، ومن سفر حزقيال الذي يعلن حلول روح جديد، واستبدال قلوب الحجر بقلوب من لحمٍ ودم (حز ١١: ١٩؛ ٣٦: ٢٦)، وأخيرًا من نبوءة إرميا المبشّرة بإبرام عهد جديد (إر ٣١ :٣١–٣٤). ويتميّز إرميا عن النصّين الباقيَين أنّه يُعلن تجديدًا جذريًّا في العهد، بحيث لا يعلّم أحدٌ قريبه، بل يعرفون الربّ جميعًا دون وسيط ودون عودة إلى سُننٍ محفورة في ألواحٍ حجريّة. في المقابل، نرى في سفرَي الخروج وحزقيال بعض الاعتدال والتأنّي: "أعطيهم قلبًا آخَر، وأجعل فيهم روحًا جديدًا، وأنزع من لحمهم قلبَ الحجر، وأعطيهم قلبًا من لحم، لكي يسيروا على فرائضي ويحفظوا أحكامي، ويعملوا بها، فيكونون لي شعبًا، وأكون لهم إلهًا" (حز ١١: ١٩–٢٠). الغاية إذًا من هذا التجديد لدى حزقيّال هي السلوك بموجب شريعة الربّ، بينما يبدو العهد في إر ٣١ جديدًا كامل الجدّة، عهدًا غير مسبوق بالنعمة والشكل، ويتجاوز كلَّ انتظارات الشّعب. من هذا المنطلق أيضًا يفهم بولس نفسه نبيًّا حقّا على خطى إرميا، ويفهم رسالته خدمة لعهدٍ جديد مبدع، يفوق كلّ إدراك، ويهبُ الحياة بالمسيح يسوع. ولكنّ هبةً كهذه لا يمكن أن تقتصر على شعب إسرائيل، بل يجب أن تنفتح لخلاص كلّ الأمم.

٥ – نبيّ الأمم إرميا، ورسول الأمم بولس

منذ دعاه الله في بداية السِفر، اتّضح لإرميا أنّ مهمّته تتشعّب باتجاهَين، الهدم والبناء: "أنظر، إنّي أقمتك اليوم على الأمم وعلى الممالك، لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض، وتبني وتغرس" (إر ١: ١٠). والكتاب بتفاصيله يستعيد هذه الآية، إذ يخصّص الثلث الأخير للبناء والتعزية والرجاء. ولكنّ توبيخات إرميا وإنذاراته لا تتعلّق فقط بالأمم، إنّما تحمل أيضًا رسالةً إلى بيت إسرائيل وبيت يهوذا؛ فكيف فهم التقليد اليهوديّ القديم تسمية إرميا "نبيّ الأمم"؟

نقرأ في الترجوم النبويّ بعض الإيضاح عن هذا الموضوع، إذ يزيد النصّ الآراميّ تفسيرًا على آ ١٠ فتصبح كالآتي: "أقمتك اليوم على الأمم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض، (**وأقمتك على بيت إسرائيل**) لتبني وتغرس". بهذا المفهوم يدعونا الترجوم إلى ربط المحور السّلبيّ للنبوءة بمصير الأمم، بينما يستفيد إسرائيل من جزئها الإيجابيّ. عندئذٍ لا يعود إرميا نبيًّا للأمم، بل نبيًّا **على** الأمم و**ضدّ** الأمم.

خلافًا لتفسير الترجوم، يتّخذ القدّيس بولس منحًى آخر في إعادة قراءة دعوة إرميا ليقلب منها المقاييس؛ فبعد أن تبنّى دعوة شعبه ليكون "نورًا للأمم"، يصرّح في رو ١١: ١٣–١٥: "بقدر ما أنا رسول الوثنيّين، أُظهر مجد خدمتي لعلّي أُثير غيرة الذين هم من لحمي ودمي، فأخلّص بعضًا منهم؛ فإذا آل إبعادهم إلى مصالحة العالم، فما يكون قبولهم إلاّ حياة تنبعث من الأموات". بالمقارنة مع إرميا، يركّز بولس على الناحية الإيجابيّة في مهمّته الرسوليّة، لأنّ "هذا السّلطان أولانا إيّاه الربّ لبنيانكم لا لخرابكم" (٢ كو ١٠: ٨)؛ فالهدم لا يطال الأمم ولا يطال حتّى الإنسان نفسه. إنّه "هدم الحصون"، و"هدم كلّ كبرياء وكلّ عقبة ترتفع لتحول دون معرفة الله"، كي يستطيع الرسول أن "يأسر كلّ ذهن، فيهتدي إلى طاعة المسيح" (٢ كو ١٠: ٤–٥). في عمليّة الهدم والبنيان هذه، يسعى بولس إلى إنشاء جماعة جديدة، تحيا بروح الوحدة والمحبّة في المسيح يسوع؛ فإنْ كان بولس رسول الأمم، فهو رسول بناءِ عهدٍ جديد وعالم جديد، تصبح فيه "الجماعتان جماعة واحدة"، لأنّ "المسيح، سلامنا، هدم في جسده الحاجز الذي يفصل

بينهما، أي العداوة" (أف ٢: ١٤).

خاتمة

هذا هو الجديد الذي يحمله بولس، متجاوزًا بذلك دعوة نبيّ الأمم، ولم يكن ليستطيع ذلك لو لم يكن "عبدًا للمسيح يسوع"، دعاه الله منذ الحشا كي يعلن فيه ابنه (غل ١: ١٥-١٦)، فيمكنه إذّاك القول: "لست أنا أحيا بعد، بل المسيح يحيا فيّ" (غل ٢: ٢٠). بين إرميا وبولس، لا يكمن الفرق في كيفيّة قبولهما وفهمهما لدعوة الربّ، وقد عاشها كلّ منهما بعمق الأمانة، ولكنّ الفرق، كلّ الفرق، في كون كلّ منهما ينتمي إلى مرحلة مختلفة من تاريخ الخلاص. بين الاثنين، قد تمّ حدث يسوع المسيح الذي أزال الحواجز بين اليهود والوثنيّين، ووهب الخلاص لكلّ من يُؤمن به، كما أوضح رسول الأمم في بداية رسالته إلى أهل روما (١: ١٦-١٧): "فإنّي لا أستحيي بالبشارة، فهي قدرة الله لخلاص كلّ مؤمن، لليهوديّ أوّلاً ثمّ لليونانيّ، فإنّ فيها يظهر برّ الله، بالإيمان وللإيمان، كما ورد في الكتاب: **إنّ البارّ بالإيمان يحيا**".

المراجع

BECKER J., *Paul, l'apôtre des nations*, Paris/Montréal, Cerf/Mediaspaul, 1995, p.10 .

JAUBERT A., *La notion d'alliance dans le judaïsme aux abords de l'ère chrétienne*, Paris, Seuil, 1963.

SILVA M., "Galatians", in G. K. BEALE & D. A. CARSON (eds.), *Commentary on the New Testament Use of the Old Testament*, Nottingham, Apollos, 2007, p.786 .

TASSIN C., *L'Apôtre Paul. Un autoportrait*, Paris, Desclée de Brouwer, 2009.